

الفضل الخامس

الإسلام والحضارة الجديدة

١ - القوة الروحية في الإسلام

يخطئ الذين يظنون أن مصير الإنسانية رهن برخائها المادى ، وأن تطورها إلى ناحية الكمال يتأثر بهذا الرخاء . إنما يرتبط مصير الإنسانية بحياتها الروحية وبالإيمان الحق بهذه الحياة . والتاريخ شهيد بذلك . فحيثما هبطت الحياة الروحية إلى أوضاع مادية نشأت الأزمات الإنسانية الخطيرة ، وآذن التاريخ أن يتجه وجهة جديدة وإن بلغ الرخاء أعظم مبلغ وحيثما سمت الحياة الروحية إلى المعانى العليا نشطت الإنسانية فى اتجاهها نحو الكمال وازدادت حرصاً على بلوغ الغاية من معرفة الحق والخير والجمال ولو لم يكن الرخاء عاماً ، ولو كان عيش الناس أدنى إلى الشظف والتقصف .

هذه حقيقة يشهد بها التاريخ القديم ويشهد بها التاريخ الحديث . ولئن كانت القوة المادية تستطيع مقاومة القوة المادية لهى عاجزة كل العجز عن مقاومة القوة الروحية . وحسبنا مما شهدنا أخيراً ما قاومت به الهند إنجلترا برعامة « المهاتما غاندى » . فقد حتم زعيم الهندوكيين الروحى على أصنحابه ألا يقاوموا قوة الحكومة المادية بأية مقاومة إيجابية . وطلب إليهم أن يكتفوا

بالمقاومة السلبية ، وأن يأبوا معاونة المعتدين عليهم ، وأن يستهينوا بالموت في سبيل عقيدتهم هذه ، فكانت تلك قوة أعظم من كل قوة مادية إيجابية تستطيع الهند في وضعها الحاضر أن تقاوم بها إنجلترا . وإني لعلى ثقة من أن هذه الحال إن استمرت عن عقيدة صادقة وإخلاص وإيمان قديرة على بلوغ كل الأغراض التي يراد أن تبلغها ، وهي إذا كانت قد قصرت دون الوصول إلى الغاية كاملة فلأن القائمين بها لم يستمروا فيها إلى النهاية .

وفي التاريخ أكثر من شاهد على قوة الحيوية الروحية قوة لا يمكن لقوى المادة وإن اجتمعت أن تغلب عليها . وانتشار المسيحية في روما أول أمرها وما احتمل المسيحيون من اضطهاد وتعذيب وقتل شاهد على ما أقول . وما حدث في مصر كذلك من تعذيب المسيحيين ومن تغلب المسيحية ، على رغم هذا التعذيب ، شاهد آخر . على أن أقوى شاهد في تاريخ الإنسانية على اقتدار القوة الروحية على الانتصار والظفر بقوى الحياة المادية كلها إنما هو ما حدث حين قام « محمد » النبي العربي في شبه جزيرة العرب يدعو إلى عبادة الله ، وإلى تحطيم الأصنام ويجادل اليهود ويجادل النصارى ويصل بقوته الروحية التي سمت إلى الدرورة من قوى الروح إلى إقرار التوحيد في شبه الجزيرة ، وإلى التمهيد لانتشاره بسرعة لم تعرف الأديان الأخرى نظيرها في أنحاء العالم كله .

لقد كانت الوثنية هي الدين الغالب في بلاد العرب حين بدأ « محمد » يدعو إلى الإيمان بالله وحده ، والعبودية له وحده ، والمساواة أمامه ، والإخاء فيه . لكن الأديان المعروفة يومئذ وأقواها اليهودية والنصرانية كانت معروفة في بلاد العرب ، وكان لها دعاة وأتباع . وكانت المجوسية الفارسية معروفة ،

إذ كانت الفرس تتاخم بلاد العرب بسلطانها على الحيرة وعلى اليمن . فلما بدأ النبي العربي دعوته كان أول ما اتجه بها إلى عشيرته الأقربين من عباد الأصنام . ومع أنهم كانوا أصحاب سلطة ومجد ، ومع أنهم كانوا القائمين بتجارة بلاد العرب فيما بين قبائلها المختلفة ، والقائمين بها بين هذه القبائل والبلاد المجاورة لبلاد العرب كالحيرة والشام . ومع أنهم كانوا بذلك أولى بأس مادي شديد فإن القوة الروحية التي دعا بها « محمد » إلى التوحيد قد تغلغلت على أموالهم وعلى بطشهم وبأسهم . وسرعان ما كسبت لذلك أنصاراً جعلوا يزدادون عدداً بتوالي السنين وجعل عددهم يزداد سراعاً كلما تبين الناس هذه القوة الروحية وسموها فوق الاعتبارات التي يجرى الناس وراءها .

فلما آن « محمد » أن يهاجر إلى يثرب ، ووجد اليهود من أهل الكتاب بين أهلها يؤمنون بالله ، وادعهم وعاهدهم . لكنهم ما لبثوا حين رأوا قوته الروحية أسمى من كل ما يعرفونه أن يرموا به وأرادوا إيقاع الفرقة بين صفوف أتباعه بالدسيسة وبالخداع وبالنفاق . والقوة الروحية الصادقة لا تعرف هذه الوسائل التي يلتمس بها سواد الناس سلطان الجاه وسلطان المال ، لذلك أسرع الخصومة إلى القيام بينهم وبين المسلمين المعتزين بقوتهم الروحية ، المستهينين بالموت في سبيلها ، إيماناً منهم بأن الدعوة للحق جل شأنه أسمى غرضاً في الحياة لكل من اهتدى إلى الحق عن إيمان وبصيرة . وخاصم اليهود « محمداً » ومن تبعه فدارت عليهم الدائرة واضطروا إلى الجلاء عن شبه جزيرة العرب كلها مع أنهم كانوا يثرب أصحاب السلطان النافذ من الناحية المادية لأنهم كانوا أصحاب المال فيها . فأما النصارى فلم يخاصموا « محمداً » والمسلمين مخاصمة اليهود إياهم لأن

المسيحية تفرقت شيعاً منذ عهودها الأولى . ودب إلى أتباع عيسى شقاق أدى إلى الجدل المادى حول الألفاظ وأدى إلى تصوير الحياة الروحية تصويراً مادياً يسفه الخيال ويفتن في تلوينه افتناناً يزيد في هذه الشيع والفرق ويدخل إلى حياتها الروحية من التعقيد مالا تسفه بساطة هذه الروح بساطة هي مبعث قوتها . ومن ثم اتبع كثيرون من النصارى « محمداً » وبقى آخرون على نصرانيتهم متزوين لا يثيرون ما أثار اليهود من حرب وجدال انتهى بهم إلى الجلاء عن بلاد العرب .

وكان أمر المجوسية أضعف من أمر اليهود والمسيحية في بلاد العرب فلم يكن لذلك جدال ولا نضال بين أتباعها القليلين وبين الدعوة إلى التوحيد .

على أنه إذا كانت نصرانية بلاد العرب قد أثرت مسألة « محمد » والمسلمين والذين آمنوا بدعوته فإن الإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لبلاد العرب خاف أصحاب الحكم فيها على نفوذهم أكثر مما تمسكوا بدينهم . فآثروا أن يناصبوا المسلمين الحرب على أنها حرب سياسية لا حرب عقيدة ودين ، وحيث ترتطم السياسة ومداوراتها مع العقيدة القائمة في النفس على إيمان لا يهاب الموت تتحطم السياسة وأساليبها وقواها وتنتصر العقيدة الصادقة والإيمان المخلص . لذلك لم تمض سنوات على اختيار الله نبيه إليه حتى كان سلطان المسلمين قد أظل بلاد الشام الخاضعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية كما أظل بلاد فارس المجوسية ، وفي هذه البلاد التي فتحت أبوابها للمسلمين قام الدعاة يدعون إلى الله فلم يلبث أهل هذه البلاد أن رأوا بساطة الإسلام وممو وجمال الدعوة الخلقية القائمة على الإيمان فيه وما يقيم بين المؤمنين به من إخاء صادق في الله ومن ير وتقوى .

هنالك انشرفت صدور الأكثرين من أهل هذه البلاد للإيمان ،
 • قآمن منهم من آمن وبقى على دينه من بقى . لم يكرهه حاكم على التحول عنه
 أو تبديله .

ولم يمض قرن واحد على خروج الدعوة الإسلامية من بلاد العرب
 حتى كان الذين دانوا بالإسلام مئات الألوف . وحتى كانت قوة الإسلام
 الروحية قد غزت القلوب والعقول بيساطتها ومخاطبتها النفس الإنسانية
 فى أعظم نواحيها سموً وعظمة . لكن أوضاعاً مادية من أوضاع أهل الأديان
 الذين اعتنقوا الإسلام ما لبثت أن تسربت إلى بعض نواحيه ، كما أن
 دعايات سياسية عملت جهدها لتكثر من هذه الأوضاع المادية . وقد خيف
 أن تفسو بين المسلمين الفرة والتشيع كما فشت فى المسيحية فيكون لها على
 المسلمين ما كان لها من الأثر على المسيحيين ولو أن ذلك حدث واستفحل
 أمره لكان الطامة الكبيرة . لكن ما حدث منه ، وما أضعف بحدوثه هذه
 القوة الروحية العظيمة التى جاء الإسلام بها وانتشر سلطانها لم يؤثر لحسن
 الحظ ، على جوهر الدين وعلى أساسه القائم على التوحيد . وهذا هو ما جعل
 المسلمين بعد أن طغت عليهم دول كثيرة يحتفظون بإسلامهم ولا يبتغون
 غير الإسلام ديناً . وذلك ما جعل القوة الروحية التى امتاز بها الإسلام تظل
 محتفظة بكيانها وإن أضعف منها هذا الذى حدث وأخضع أهلها لغيرهم
 من الدول .

ولو أن هذه القوة الروحية عادت تملأ نفوس المسلمين اليوم كما كانت
 تملأ نفوسهم فى صدر الإسلام وفى عهوده الأولى لما استطاعت قوة مادية
 أن تغلب عليها وإن آزرتها معجزات العلم بكل سلطانها . وليس هذا
 العود بالأمر العسير إذا تضافرت جهود المسلمين الصادقين عليه . ولو

تضافرت هذه الجهود لأسدى أصحابها للإنسانية بدءاً ولأنقاذها من أزمة تعانيها وتعالج الخروج منها فلا نجد إلى الخروج من سبيل .

٢ - أوروبا والإسلام ولم لا يتفاهمان ؟ °

أما أنه ليس هناك تفاهم بين أوروبا والإسلام فهذا أمر لا شك فيه ، غير أن كثيراً من الأوروبيين يرجعون هذا إلى الدين ، وهم يقولون إن المسيحية والإسلام عاشا في خصومة مستمرة منذ ثلاثة عشر قرناً ، ولذلك كان من الطبيعي أن ينشب بينهما الخلاف ، وأن لا يتم التفاهم بين أوروبا والإسلام . تلك فكرة مخطئة ، وإذا كان فيها ظل من الحقيقة فهو بقدار ما في قولنا إن فرنسا وإنجلترا لم يستطيعا التفاهم قبل سنة ١٩١٤ . فقد كانتا قبل هذا التاريخ عدوتين كأشد ما تكون عداوة ونفرة وخصاماً . وليس من السهل على إنسان يحكم عقله فيما يعرض له من مظاهر أن يقبل نقاشاً من هذا النوع ، إذ أن هاتين الدولتين متفاهمتان تفاهماً تاماً ، وليست الأفكار الديمقراطية التي شاعت في فرنسا سنة ١٧٨٩ إلا نفس الأفكار التي جاءت بها الثورة الإنجليزية في سنة ١٦٨٨ ، وهي هي التي هيأت لما نتج عنها من تطورات . وهذا نفس ما وقع بين أوروبا والإسلام . فإن أوروبا قد استفادت كثيراً من الجهود العلمية والفلسفية التي جاءت بها

° وكانت صحيفة الكايه دى سيد - التي تصدر في فرنسا قد بعثت إلى الدكتور هيكمل تطلب إليه أن يكتب مقالا بالفرنسية لينشر في العدد الذي خصصته هذه الصحيفة - للإسلام والعرب - فبعث إليها بهذا المقال عن أسباب عدم فهم أوروبا للإسلام وما يراه من الوسائل الكفيلة بخلق تفاهم بينهما . وقد ترجمه الأستاذ أحمد عبد الغفار المحامى (١٩٣٦) .

الدولة العباسية في العصور الوسطى . ولا أحسب أني أنهم بالمعالة إذ قلت إن المسلمين هم الذين فتحوا عيون أوروبا على الحضارة والفلسفة اليونانية ، وذلك عن طريق نقل آثار أفلاطون وأرسططاليس إلى العربية وتعليقهم على هذه الآثار . ولم يمنع الدين المسيحي ولا الدين الإسلامي أن تستفيد أوروبا من هذا الجهد الإسلامي .

ودليل آخر على أن هذه فكرة مخطئة هو أن كلا من المسيحية والإسلام إنما بشيران إلى نفس الآراء فيما يختص بالكون . فقصة التكوين ، والخير والشر ، والخلق كله ، والأوامر والنواهي ، واحدة في كل من الدينين ، فليس بين الدينين من خلاف إلا في فكرة الرّحمانية في الإسلام وموقفه من فكرة التثليث ، وفي بعض الوقائع التاريخية التي تتعلق بأبناء النبيين . غير أن هذه الخلافات - التي لا تمس الجوهر - ليس من شأنها أن تعدم التفاهم . أو تقم خلافاً كالذي دفع إلى الحروب الصليبية قديماً ، والذي لا يزال حياً الآن بين أوروبا والمسلمين .

ومن ناحية أخرى فإن أوروبا تدعى أنها تطورت وأنها خرجت من الدائرة اللاهوتية ودائرة ما وراء المادة إلى الحالة البضعية . وهذه الحالة التي تدعى أوروبا اصطناعها لا تساعد على جعل الدين أساساً لصلوات الاجتماع ، في حين أن المصالح الاقتصادية استطاعت أن تشعل نيران أكبر حرب عرقها الإنسانية حتى اليوم .

ومعنى هذا أن تلك الحالة الوضعية لا تبيح أن يكون الدين - وفقاً لمنطقها ذاته - سبباً في استبعاد التفاهم بين شعبين ، بله بين أوروبا والمسلمين .

وقد يقول أحد الأوربيين : حقاً إن الدين ليس في ذاته سبباً في عدم

التفاهم هذا ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون تعصب المسلمين هو السبب في تلك الحالة التي يتبادل فيها الأوروبيون والمسلمون العداء . وهذا الكلام ليس أكثر ابتعاداً عن الصواب مما قدما ، فلست أتردد في أن أقول إنه إذا كان هناك تعصب فعلاً فإن هذا التعصب ليس من بضاعة المسلمين ، ولست ألقى هذا القول جزافاً فإن الحقائق كلها تؤيد ما أذهب إليه . فلما جاء « يونابرث » إلى مصر في سنة ١٧٩٨ ، لجأ إلى العلماء لكي يمدوه بالمساعدة في إدارة البلاد . وإذا كانت غزوة « يونابرث » لم تنجح في مصر بعد رحيله عنها ، فذلك لأن القائمين عليها إذ ذاك أغفلوا الشعور الوطني متأثرين بالتعصب الديني . ولو قد كان التعصب لدى المصريين على هذه الصورة التي يتخيلها الأوروبيون لكانت تكفي تصريحات « نابليون » و « كبير » و « مينو » ، وقد كان العلماء الدينيون في مصر معهم ، كانت تكفي هذه التصريحات لكسب شعور البلد ، ولكنهم فشلوا لأن النزعة الوطنية كانت أقوى من التعصب الديني عند الأهلين ولذلك لم يستطع لا نابليون ولا من خلفه على الحملة الفرنسية أن يكسبوا المصريين في صفهم .

وحقيقة أخرى تثبت بوضوح أن التعصب الديني منعدم تماماً عند المسلمين . تلك أن أغلبية البلاد الإسلامية - إبان الحرب الكبرى - انضمت إلى صف الحلفاء مع أن تركيا وحدها هي التي انضمت إلى ألمانيا ، ولقد فشلت الدعاية القوية التي بذلتها تركيا لإنعاش هذا التعصب الديني المزعوم لكي تضم البلاد الإسلامية إلى جانبها ، والسبب في هذا أن البلاد الإسلامية كانت إذ ذاك لا يدفعها إلا الشعور الوطني ومصالحها المستقبلية . وحقيقة ثالثة تثبت أن هذا التعصب لا وجود له - هي تركيا الحالية . فقد انجهدت بكل جهودها إلى أوربا لكي تقتبس منها ما يعيد إليها شبابها . ولست

في مقام الحكم على مدى نجاحها في هذا السبيل ، ولكن كونها وبقائها إلى الآن بلداً إسلامياً ، قد أظهرت بمسلكتها هذا أنه لا الدين ولا التعصب يمكن أن يكون سبباً لعدم التفاهم بين أوروبا والمسلمين .

ولكى نتعرف هذه الأسباب يجدر بنا أن نستعيد جانباً من التاريخ . فبعد وفاة النبي العربي صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة ، أنشأ المسلمون إمبراطورية إسلامية واسعة النطاق . ولم تكن فكرة الاستعمار هي التي تدفع المسلمين للغزو ولكنه كان إيمانهم وتعصبهم لفكرة الوجدانية هو الذي يبعث فيهم روح الغزو لينشروا ما آمنوا به في كل الأنحاء وليمحووا آثار الوثنية . وبعد ذلك بمائة عام قام المسلمون بغزوات أخرى . وكان نفس هذا الباعث هو الذي يدفع المسلمين ، ولكن بحماسة أقل ، وحماس ديني أقل . فقد كانت فكرة الغزو للغزو في هذه الآونة ، وفكرة الاستعمار حباً في الاستعمار ، تساوى تماماً فكرة نشر الدين الجديد .

وبعد ذلك بخمسين سنة قام المسلمون بغزوات أخرى . ولكن في هذه المرة لم يكن الباعث الديني هو الذي يحمل المسلمين على الغزو ، بل كانت فكرة الغزو للغزو ، والسبب في هذا واضح ، فقد كان الإسلام منتصراً كل الانتصار فلم يعد في حاجة إلى زيادة التوسع بقدر ما كان المسلمون أنفسهم في حاجة إلى غزو بلاد جديدة تدفعهم فكرة الاستعمار . وهذا التطور من فكرة نشر الدين إيماناً بوجوب نشره ، إلى فكرة الاستعمار للاستعمار يعتبره الكثيرون السبب في قيام الحروب الصليبية ، ومع ذلك فإن المؤرخين يذهبون إلى القول بأن الحروب الصليبية هي حروب سياسية بقدر ما هي حروب دينية ، وأن الملوك الذين اشتركوا فيها لم يلجأوا إلى الشعور

الدينى عند رعاياهم إلا لاستارتهم وزيادة حماسهم وزيادة القوة المعنوية بين صفوفهم .

ومرت بعد ذلك قرون حتى انتهى الأمر باستيلاء الأتراك على « إستانبول » فى القرن الخامس عشر . وكان أثر هذه الحملة الآسيوية التى قام بها الأتراك فى البلاد الإسلامية عكس أثرها فى أوروبا ، فقد شعرت شعوب أوروبا بهزة أبقتها من سبات القرون الوسطى . وأما فى البلاد الإسلامية فإن الأمر يختلف عن ذلك . فلم يكن بين الشعب الغازى والمسلمين أية علاقة تجمعهم جميعاً إلا علاقة الدين ، لا علاقة الجنس ، ولا علاقة اللغة ، ولا علاقة التفكير . وأما الدين فلم يكن فى نظر الأتراك إلا رابة للحرب تتخذ وسيلة لعقاب كل بلد إسلامى لا يخضع للأتراك . وقد ترتب على هذا أن العالم الإسلامى راح فى سبات عميق عند غزو « إستانبول » فى حين أن أوروبا بدأت تستيقظ على دوى هذا الغزو وتتجه إلى حياتين ذهنية وروحية جديدتين .

بيد أن هذه النهضة الأوربية لا تشابه تلك النهضة الروحية التى كانت شبه جزيرة العرب مسرحاً لها قبل ثمانية قرون تحت تأثير ما بعث به محمد من الحق .

وليست النهضة الدينية التى أظهرت « لوتر » إذ ذاك إلا خلافاً على تفاصيل الدين لا على جوهره ، ولذلك فإنه ليس يمكن أن تقارن هذه النهضة بما كان من نهضة الإسلام الأولى ، ولذلك كانت ثورة « لوتر » أقل من أن تؤثر فى أوروبا كلها ، وإن تكن قد عبت الطريق لمذهب « ديكارت » والفلسفة الوضعية بعد ذلك . وبينما كان هذا التطور العقلى يهز أوروبا ، كان مبدأ القوميات يتأكد فى الأذهان تمهيداً لأن يكون قاعدة

للحياة السياسية المستقبلية - ومن الحق أن نقول إن هذا المبدأ كان دائماً موجوداً في أوروبا ، ولكنه لم يكن يمثل القوة التي ظهر بها بعد عصر النهضة وإحياء العلوم ، وقد اقتضى هذا المبدأ الدول الأوروبية أن توسع من نفوذها خارج أوروبا تفادياً لقيام حرب بينها في داخلها . وهكذا بدأت السياسة الاستعمارية تشق طريقها في أوروبا ، تلك السياسة التي تكون السبب الحقيقي لعدم التفاهم القائم بين أوروبا والإسلام .

ولنشرح هذا قليلاً ، ففي غضون القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الكبير « لينتر » « لويس السادس عشر » أن يحفر قناة تصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، ولم يكن غرض « لينتر » بالطبيعة من هذه النصيحة نشر فلسفته ، بل كان الغرض الذي يرمى إليه هو فتح الطريق أمام التوسع الأوربي في أفريقيا وآسيا . فقد كان لإسبانيا مستعمراتها في أمريكا وكانت تدر عليها الذهب ، فكان من الضروري أن يكون لغيرها من الدول مستعمرات كذلك . وفي نفس الوقت انتهت المفاوضات التي كانت جارية مع تركيا إذ ذاك بمنح المسيحيين الذين بقيمون في البلاد الإسلامية امتيازات من شأنها أن تسهل لهم الإقامة والاتجار . ولم يكن أحد يفكر عندئذ في إدخال المدنية إلى الشرق ، ذلك الادعاء العبقري الجميل الذي لجأت إليه الدول الأوروبية لتبرير الاستعمار بعد ذلك بقرنين . هذا وقد منح الباب العالي امتيازات للدول المختلفة للوصول في النهاية إلى شرط أولى الدول بالمراعاة . وهكذا رسخت التجارة الأوروبية في الشرق توطئة للحضارة الاستعمارية .

وقع بعد ذلك حدث - لست أدري أكان وقوعه لحسن الحظ أم لسوءه - ساعد على رسوخ هذه الحضارة الاستعمارية ، ذلك هو الصناعة

الكبرى . فلكي تجدد الدول الأوروبية الأسواق اللازمة لاستهلاك ما تخرجها صانعها الكبيرة من منتجات . أخذت هذه البلاد تتنافس في غزو المستعمرات . وكانت الفكرة في هذا إيجاد أسواق جديدة للمنتجات الصناعية والبحث عن حقول جديدة كذلك لإنتاج المواد الخام .

وكانت هذه الروح الاستعمارية في إبان سطوتها عندما انفجرت الثورة الفرنسية فهزت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها بما أشاعت من فكر عن الحرية والإخاء والمساواة . وبما جاهدت في سبيله من توطيد لحق الشعب في حكم نفسه ، ومن وضع لقواعد الديمقراطية الحالية .

ولكن كيف يمكن أن نوفق بين هاتين الفكرتين المتناقضتين : الحرية ، والاستعمار ؟ من العسير حقاً أن نفهم هاتين الفكرتين معاً ، ولكن أصحاب الثورة الفرنسية لم يترددوا لحظة أمام هذه الصعوبة في التوفيق بين الفكرتين ، فلقد قالوا إن المبادئ الجديدة التي جاءت بها الثورة الفرنسية يجب أن تظل محصورة ضمن أوروبا فلا تتعداها . وعندما جاء « نابليون » إلى مصر ، لم يكن مدفوعاً إلى اجتياز البحر الأبيض بدافع الحرية . ولكنه كان مدفوعاً بمقاومة وضع البد الإنجليزية على مصر توطئة لعرقلة النفوذ البريطاني في الهند . وإذن فقد كانت فكرة الاستعمار ، والاستعمار فقط ، هي التي تحكم نشاط كل من إنجلترا وفرنسا في مصر . ولذلك فإن هذه المبادئ التي نادى بها الثورة الفرنسية ، مبادئ الحرية والمساواة والإخاء لم تقف قط عقبة في سبيل تقدم أوروبا في الشرق وفي البلاد الإسلامية .

يبد أنه من الواجب - إلى جانب هذا الدافع الحقيقى - أن تبحث أوروبا عن تعلقة أخرى تبرر بها الغزو الأوربي للبلاد الشرقية . ولم يكن البحث عن هذه التعلقة بالشئ العسير . فإن هذه الشعوب المستعمرة شعوب أولية

ومن الحق على أوروبا أن تعلم هذه الشعوب ، وأن ترفعها إلى مستوى الحضارة الجديدة ، وأن تكونها وتديرها بحيث تستطيع أن تحكم نفسها وفقاً للآراء الديمقراطية . كانت تلك هى التلة التى استرت أوروبا وراءها ، وإنها لتلة عبقرية حقاً . فلو قد كانت هذه العواطف صادقة . ولو قد كانت أوروبا مخلصه فيما تريد أن توطد قدمها من أجله فى الشرق ، لكان واجباً على هذه الشعوب الشرقية أن تبادل التهنئة على روح العطف على الآخرين التى تبدو من أوروبا إذ ذاك .

ولقد آمنت هذه الشعوب الشرقية بسذاجة تامة بهذا الإخلاص الذى أبدته أوروبا ورغبت بكل قواها أن تقتبس الحضارة والثقافة الأوروبية . ولكنها سرعان ما تبينت أن لا مواءمة هناك بين هذه الجهود التى تبذلها وبين الأغراض الحقيقية لهؤلاء الأسياد الذين كانوا يحكمون أقدار هذه الشعوب عندئذ . فالحضارة الأوروبية إنما تقوم فى الواقع على العلم وعلى رأس المال الصناعى وأرادت الشعوب الشرقية أن تستعيد القرون الثلاثة التى سبقتها بها أوروبا فحسبت أن مبادئ الإخاء والمساواة من شأنها أن تملئ على أوروبا واجب الأخذ بيد هذه الشعوب لكى تحصل على نصيبها من العلوم ومن رأس المال المستغل فى الصناعة ، كما كان الحال مع المسيحيين الأول والمسلمين الأول الذين حاولوا بكل ما يملكون من جهد أن ينشروا ما جاءت به المسيحية والإسلام ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ومنذ أوائل القرن التاسع عشر رغب المصريون اصطناع العلوم والصناعات فى بلادهم ، وساعدتهم الظروف على موأاة أملهم هذا ، ثم نما هذا الأمل بعد الاحتلال البريطانى ، فقد كان من حق المصريين أن يعتقدوا أن إنجلترا سوف تصدر لمصر - فيما تصدر من مصنوعات منتجاتها القطنية - حضارتها الجديدة كذلك فانظر المصريون أن يروا إنشاء

الجامعات ، ونشر التعليم العام ، وإنهاض الصناعات الكبيرة . ولكن هذا الأمل ما لبث أن خبا ، فقد اتهمت البلد المغزو بأنه بلد بعيد عن الحضارة ، وأن هذا ناشئ عن الدين الإسلامي .

ولقد جاهر « اللورد كرومر » ممثل بريطانيا العظمى في مصر - في تقاريره الرسمية - أن الغرض من التعليم يجب ألا يتعدى إخراج موظفين مطيعين يعملون في الإدارة . ولم يكن يهم إنجلترا أن تتقدم مصر في ناحية من النواحي إلا في إنتاج القطن والمواد الخام التي يحتاج إليها الاستهلاك البريطاني وتحتاج إليها الصناعة البريطانية ، ويجب أن نعتز أن إنجلترا بذلت مجهودات هائلة لتحسين إنتاج القطن وغيره من المواد الخام . غير أن أى طلب ينصب على إنشاء صناعة كيفما كانت يوظف فيها رأس المال المصرى ، كل طلب من هذا الطراز كان يقابل بالرفض البات ، أو بوضع عقبات - لا يمكن التغلب عليها - في طريقه . وما حدث في مصر حدث في غيرها من البلاد المستعمرة . ولم يكن التنافس الاستعماري المسرف غير الدافع لعلبوم الثاني على أن يقول إن مستقبل ألمانيا ليس إلا في البحر ، ولم يكن إلا الدافع إلى إعلان السلام المسلح ، الذى أُملى على أوروبا أن تنفق مئآت الملايين في التسليح ، ولم يكن إلا الباعث على نشوب الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ . وسياسة كهذه لا يمكن أن تطمئن إلى غدها ، ولا يمكن أن تضع ثقتها في شيء ، ولذلك لم يكن لأوروبا بطبيعة الحال ثقة في مستعمراتها ، ولم يكن للبلاد المستعمرة - من باب أولى - ثقة في نوايا أوروبا ، ومن أجل هذا كان عسيراً أن يقوم تفاهم بين أوروبا والإسلام .

ولم يكن للشعوب المستعمرة ثقة في أوروبا ، ليس فقط لأن أوروبا كانت تعاملها باعتبارها شعوباً غير متحضرة ، ولكن لأنها كانت تطبق في

مستعمراتها الآراء التي حكمت عليها - داخل بلادها الأوربية - بأنها بالغة الضرر . فقد قررت فرنسا مثلاً فصل الكنيسة عن الدولة داخل بلادها ، وقررت كذلك تجريد رجال الكنيسة من أموالهم ، وأعلنت بعد ذلك الحالة المدنية . ومع كل هذا فإن الحكومة الفرنسية المدنية تعطى أموالاً طائلة للبعثات الدينية التي تدعى أنها تنشر المسيحية .

ومن الحق علينا أن نعترف بأن هذه البعثات الدينية - سواء منها الفرنسية والأمريكية والإنجليزية وغيرها - قد قامت بأعمال إنسانية في الشرق فقد أسست هذه البعثات معاهد علمية ، ومستشفيات ومؤسسات خيرية . ولكن البعثات المدنية قامت كذلك بأعمال كثيرة من هذا الطراز . والواقع أننا لا نستطيع أن نفسر هذا التناقض الظاهر في مسلك الحكومات الأوربية ، إذ أن هذه الحكومات تطارد البعثات الدينية من بلادها لكي تحميها في الخارج ، فإن لم يكن الباعث هذه الروح السياسية الاستعمارية لما عاملت البلاد المستعمرة غيرها من البلاد وفق المبادئ التي قامت الثورات ضدها عند الأمم الأوربية .

ومن العوامل التي ساعدت على عدم قيام تفاهم بين أوربا والإسلام هجرة العناصر غير المرغوب فيها في البلاد الأوربية إلى البلاد المستعمرة بحثاً عن الثروة دون إقامة أدنى وزن للوسائل والأساليب التي يستخدمونها فيما هم بسبيله من غرض . ويكنى أن يقرأ الإنسان كتاب « إدمون أبو » القديم المسمى « الفلاح » لكي يدرك الإنسان إلى أى درك تنحط هذه الوسائل والأساليب في أغلب الأحيان ، ولكي يعرف أن الربا قد يكون أقرب هذه الوسائل إلى الخير والفضيلة .

وعند ما خاب أمل الشعوب الإسلامية - كما وضعنا ذلك - في

نيات أوروبا ، أحست هذه الشعوب ، قبل الحرب الكبرى بعدة سنين ، أن من واجبها ألا تعتمد إلا على مجهودها الخاص ، ولم يكن أمل هذه الشعوب الإسلامية كبيراً في النجاح ؟ ولكن يجب أن نعترف إلى جانب هذه الحقيقة التي قرناها ، أن ضعف الأمل في النجاح لم يقف عائقاً دون هذه الشعوب وما تبتغى من الأغراض ، بل لم يمنعها هذا من الاستزادة من النشاط مع الإيمان دائماً بالعدالة الإلهية العالية .

ولشد ما كان دهش هذه الشعوب عندما اندلعت أول شرارة للحرب العظمى في الثاني من أغسطس سنة ١٩١٤ : ففي غضون المدة الطويلة التي استمرت فيها الحرب كانت دعاية الحلفاء التي تنادى بأنها تحارب الروح العسكرية الألمانية لكي تنصر الحرية ، والوعود التي كان يبذلها هؤلاء للشعوب المستعمرة ، والمبادئ التي جاءت بها الهدنة ، وخاصة الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها - كل هذه أمور كان من شأنها أن تفتح أمام الشعوب المسلمة آفاقاً جديدة وبالأخص أمام الشعوب التي انتصرت لقضية الحلفاء .

وإذا انتهت الحرب ، ووقعت المعاهدات ، أخذت آمال هذه الشعوب تدوى ! ! أكانت إذن خدعة من أوروبا عندما قام من ينادون بحق تقرير المصير ؟ أكان إذن خدعة ذلك النضال ضد الروح العسكرية الألمانية ؟ وهل بقيت أوروبا ما بعد الحرب إزاء الشعوب الإسلامية هي أوروبا ما قبل الحرب ؟ لقد كانت خيبة الأمل في ذلك كله أكبر من الآمال التي عقدتها هذه الشعوب على أوروبا .

بيد أن شيئاً لا يمنع من قيام تفاهم متبادل بين أوروبا والإسلام إذا

وجد الرجال ذوو العزائم من الناحيتين ، الذين يأخذون على عاتقهم القيام بهذا العبء الضخم .

ولكن أين يوجد هؤلاء الرجال ؟ أين الكتاب والفلاسفة ورجال العلوم ؟ أعتقد أن من الواجب على أن أقول - دون أن أحدثش جميع من ذكرت - إن هؤلاء كلهم يتحملون نصيباً كبيراً من المسؤولية عن قيام عدم التفاهم الحال بين أوروبا والإسلام ، إذ أن الأغلبية منهم تنسى أن لهم رسالة إنسانية ، رسالة لا تعرف حدود الدول السياسية . فهؤلاء الكتاب والفلاسفة وأصحاب العلوم يضعون نبوغهم وعبقريتهم في خدمة سياسة بلادهم القومية ، وليس من ينكر أن هذا واجب عليهم إذا تعرضت أوطانهم . للأخطار ولكن هذه الأخطار قليلة الحدوث في الغالب ، ومن واجب رجال السياسة أن يسيروا أمور الوطن وقت السلم تسييراً يكون من نتائجه الابتعاد عما يوقد نيران الحرب ، ففي هذه الأوقات ، من الحق على أصحاب العلوم الإنسانية من الكتاب وغيرهم من رجال الفكر ، أن يسخروا جهودهم لخدمة قضية الحرية والتعاون بين الشعوب .

وحرية الشعوب التي نعنيها شبيهة بحرية الأفراد . يحترمها الجميع ويعترف بها الجميع ، دون نظر لثرواتهم أولقواهم المادية ، وتعاون الشعوب الذي نعنيه تعاون قائم على القاعدة السابقة بين الأمم . وحسبنا بهذه وسيلة للتفاهم المرموق .

ولكن هل يمكن أن ينجح الإنسان في دفع رجال الفكر في العالم إلى طريق كهذا الطريق ؟ تلك هي المشكلة ، ذلك أن المصالح المادية - لسوء الحظ - من القوة بحيث لا تجعل محلاً للأمل العريض . فهذه المصالح حتى الآن هي التي تدير النشاط في العالم ، بل إنها تدير حياته

الروحية والخلقية . غير أننا لا يجوز أن نبأس مع ذلك . فإن كثيرين يعتقدون أننا الآن في سبيل بعث أكبر من البعث الذى رآه أوربا فى القرن السادس عشر فى عصر النهضة وإحياء العلوم ، وأن هذا البعث لن يقتصر على أوربا ، بل إنه سوف يشمل دول العالم جميعاً . وسيكون هذا البعث نتيجة طبيعية لهذه الحرب الاقتصادية المستعرة بين الشعوب ليس فى أوربا فحسب ، ولكن فى آسيا وأمريكا كذلك . فلنؤمل إذن أن يقترب موعد حرية الشعوب والتعاون بينها لسعادة الجميع ورفاهة الجميع .

وبومذاك ، لن يوجد عدم التفاهم بين أوربا والإسلام ، بل سيوجد تفاهم عالمى للوصول إلى الحقائق الخلقية العالية ولتوطيد السلام بإقامة الحياة الخلقية على البصيرة الروحية والحياة الاقتصادية على الحياة الخلقية .

٣ - وجهة الإسلام

« يجب علينا فى الختام أن نتساءل عما يمكن فى مستقبل نظام العالم أن يكون عليه وضع الجماعة الإسلامية بصفة عامة ، وأن تكون عليه صلاتها بالجماعات الإنسانية الأخرى بصفة خاصة . لقد أوضح الأستاذ « برج » بحق أن إلقاء الشعوب الإسلامية بوزنها فى كفة العرب أو فى كفة الشرق يتعلق تمام يتعلق بموقف أوربا من العالم الإسلامى ومن الشرق بوجه عام . والإسلام لا يمكن فى نفس الوقت أن ينكر أسسه الذاتية وأن يعيش . وقد رأينا أن الإسلام فى أسسه يتصل بالجماعة الغربية بمعناها الواسع ، بل هو جزء منها . فهو مكمل الحضارة الأوروبية ومعد لها ، استقى من ينباع

التي استقت منها هذه الحضارة وتنفس الهواء الذي تنفست . وما هو حادث اليوم بين أوروبا والإسلام إنما هو في أوسع صور التاريخ مدنى استعادة حضارة الغرب كماها الذي تصدع تصدعا مصطنعا بالنهضة (الرينسانس) . والذي يستعيد الآن وحدته بقوة ساحقة .

« والمشتغل بدراسة التاريخ » وإن كان يدرك مزالق الأقيسة لا يسعه إلا أن يذكر لحظتين قديمتين (وإن لم تكونا أقدم مثيلتهما) من لحظات التفاعل الإنسانى بين تصفى العالم الغربى . فقد كان جلال الإمبراطورية الرومانية وعظمتها أنها وحدت بين القسمين تحت سلطانها . وحدة نشأت منها القوى الروحية التي سيطرت على مجرى التاريخ الغربى . وفي منتصف الطريق بين ذلك العصر وعصر النهضة الأوربية وثب الإسلام ورثته الفكرية الأولى عندما تشرب تراث الإغريق وأخرج منها زهورا جديدة أمدت النهضة الأوربية بدورها .

ولا يمكن أن تقف الحركة عند هذا الحد . بل هى ستمر تحت أعيننا وفى ميدان أوسع وأرحب ، وإن كان التباين بين العالم الإسلامى باعتباره كلا وبين التقدم الصناعى المدهش الذى بلغته أوروبا الغربية قد يحول أحيانا بيننا وبين مشاهدة هذا الاستمرار . ولو أن الأمر كان بالعكس لما تغيرت النتيجة ولكان لزاما علينا أن نلجأ للمجتمع الإسلامى لبعيد إلى المدينة الغربية توازنها الذى أفقدها إياه تقدم الغرب دون الشرق . وربما يتضح على مرور الزمن أن معقل الإمبراطورية العثمانية كان فى دفاعها عن الإسلام ، وأنها يجعله فى معزل منته من الاشتراك فى تقدم الوطنية الأوربية المبالغ فيه وجعلته يأخذ الصبغة البلقانية - وهذا هو المصير الذى وقعت فيه تركيا نفسها والذي ورثته عن ماضيها السياسى البيزنطى لا عن

ماضيها الإسلامى . ومهما تكن الظروف فإن الإسلام ليقف جنباً إلى جنب مع أوروبا على خلاف المجتمعات الشرقية الأخرى فى الهند والشرق الأقصى . وفكرة إنشاء عصبة أمم شرقية تشمل البلاد الإسلامية والهند والصين واليابان فكرة خيالية أنتجها استياء الشرق من سيطرة أورب الاقتصادية المؤقتة . ولن يستطيع المجتمع الإسلامى أن يستغنى عن التعاون الأوربى لبلوغه الغاية التى يصبو إليها من التقدم لثقافته وحياته الاقتصادية . كما أن المجتمع الأوربى ليس يستطيع الوصول إلى الغاية القصوى من التقدم فى ثقافته وحياته الروحية بدون الاستعانة بالقوى الكامنة فى المجتمع الإسلامى . ثم إن المجتمعين لن يتمكنوا من استعادة كامل القوات الكامنة فيهما واستغلالها قبل أن يستعيدا ذلك التفاعل الذى كان قائماً بينهما فى ظل الإمبراطورية الرومانية .

« ولا يزال الإسلام عامل التوازن بين التقيضين فى العالم العربى . فهو يقف فى وجه فوضى الوطنية الأوربية كما يقف حائلاً دون زحف الشيوعية الروسية . ذلك بأنه لم يخضع بعد لضغط الحانب الاقتصادى الذى يعد من خصائص الحياة فى أوروبا وفى روسيا على السواء فى حركتنا الحاضرة . وقد لخص الأستاذ مسينيون أدب الإسلام الاجتماعى تلخيصاً يثير الإعجاب فى قوله : « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعيش فى موارد الجماعة . ومبادئ الإسلام تنبذ التبادل غير المقيد كما تناوئ بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورؤوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية . »

« والإسلام مطالب كذلك بخدمة أخرى يسديها للإنسانية . فهو إلى الشرق الحقيقي أقرب من أوروبا إليه . وله ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتقاهمها . وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماضٍ كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في أفريقيا والهند والهند الشرقية ، والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان . على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها . وإذا ما أُريد إحلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات في الشرق والغرب فإن وساطة الإسلام ضرورية لا غنى عنها . فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التي تواجه أوروبا في علاقاتها مع الشرق . فإذا اتحدا عظم الأمل في أن تكون النتيجة سلاماً . أما إن رفضت أوروبا معاونته الإسلام وألقت بنفسها في أحضان خصومه فإن العاقبة لا يمكن أن تكون إلا نكبة لهما معا » .

* = *

ما أنتم القارئ الآن تلاوته هو ختام كتاب « وجهة الإسلام » . الذي تعاون في وضعه الأستاذة « جب » بجامعة لندن . و « ماسينيون » بجامعة باريس ، « وكامبفماير » بجامعة برلين . و « برج » بجامعة ليدن والفتنات كولونيل « فرار » . وهؤلاء جميعاً هم كبار المستشرقين في ممالك أوروبا المختلفة . وقد تولى الأستاذ « جب » نشر هذا الكتاب ووضع مقدمته وخاتمته التي حاول فيها أن يصور اتجاه الشعوب الإسلامية في هذا العصر الحاضر . أما الأستاذ ماسينيون فقد كتب عن شعوب أفريقيا الشمالية فيما عدا مصر والشرق العربي وتركيا وفارس وأفغانستان ، وكانت الهند الإسلامية

موضع دراسة اللفتات كولونيل فرار ، كما كانت إندونيسيا موضع بحث الأستاذ « برج » . وقد تعاون هؤلاء الأساتذة جميعاً في دراسة العوامل والاتجاهات التي تبدو وتعمل في الممالك الإسلامية وأرادوا على ضوء دراستهم ومباحثهم أن يصوروا موقف الإسلام من أوروبا وموقف أوروبا من الإسلام وما يجب أن تكون عليه صلات الفريقين في المستقبل بعد أن وصفوا ما كانت عليه في الماضي .

ولعلك شعرت من قراءة خاتمة الكتاب ومن هذا العرض السريع لمشتملاته أنه كتاب سياسي يقوم على أسس من البحث العلمي ، وتنت لذلك يجب إذا قرأته أن تقرأه بما يجب من حذر السائر في مسالك السياسة ، ومن سكينه المظمن لنزاهة مباحث العلم ، ويجب عليك كذلك أن تعمل للاستفادة منه كمسلم وكشرق في مثل الغاية التي وضع لها .

* * *

يبلغ عدد المسلمين على حساب الإحصاءات الأخيرة من مائتين وأربعين إلى مائتين وخمسين مليوناً . منهم مائة وثمانون مليوناً في آسيا ، وخمسون مليوناً في أفريقيا ، والباقي موزعون بين أوروبا وأمريكا . وهؤلاء المائتان والخمسون مليوناً موزعون توزيعاً جغرافياً عجيباً يجعلهم جميعاً متصلين أو في حكم المتصلين بعضهم ببعض . فهم يتتابعون في سلسلة متصلة من غرب أفريقيا حيث يتاخمون الأطلانطيق إلى السودان ومصر ويمتدون محاذين البحر الأبيض المتوسط إلى غرب آسيا وجنوب أوروبا مما

يبلغ عدد المسلمين في العالم الآن حوالي ٧٠٠ مليون وذلك حسب آخر الإحصائيات .

حول البحر الأسود ثم تستمر سلسلتهم مطردة الانصال شمالاً في قلب سيبيريا وشرقاً في منغوليا ، كما أنها تتخطى الدجلة والفرات في العراق إلى العجم وإلى أفغانستان وإلى الهند حيث تنقطع السلسلة هوناً ما لتتصل بعد ذلك في جزر الملايا وأرخيل الهند الشرقية حتى تنتهي إلى الفيليبين . وهي تنزل جنوباً من السودان إلى شاطئ أفريقيا الشرقى حتى مدغشقر . يضاف إلى هذه السلسلة المتصلة بعض شعوب إسلامية منعزلة خلال الصين أو على حدودها وفي جنوب أفريقيا وفي بولونيا وفي أنحاء مختلفة من أوروبا وأمريكا . يقول « جب » : « إذا أنت نظرت إلى العالم الإسلامى على الخريطة رأيت أنه أشبه شئ بهلالين عظيمين تنبعث قرونها من مركز مشترك في آسيا الغربية . فالهلال الشمالى يتكون من شريط يزيد عرضه على ألف ميل ويكاد يحيط بأوروبا من أقصاها إلى أقصاها ويعزلها جغرافياً عن بلاد آسيا الجنوبية والشرقية الكثيرة السكان . أما ذراع الهلال الشمالى الرفيعة فتضم أثناءها المحيط الهندى » .

هذا العالم الإسلامى الفسيح في ترامى أطرافه ، الجامع لذلك بين شعوب وأجناس وبيئات مختلفة التاريخ كاختلافنا في ظروف العيش ، له مع ذلك وحدة في الحضارة ووحدة في الثقافة . ومرجع ذلك إلى أسباب عدة : منها أن هذا العالم الإسلامى لم يتكون تدريجياً على الزمن ، ولكنه وجد وامتد في فترات قصيرة متقاربة هيأت لهذه الوحدة النفسية والعقلية ، فلما بين بعث النبي عليه السلام في سنة ٦٣٢ ميلادية وسنة ٧٥٠ أى في فترة لا تزيد على مائة وعشرين سنة - امتد سلطان الإسلام من إسبانيا ومراكش إلى أواسط آسيا وظل مستقراً هنالك قرنين ونصف قرن من الزمان أمكن فيهما تركيز حضارة وثقافة مستمدتين من أصل الإسلام والبيئة التي

نشأ منذ أول أمره فيها . وفي المائة السنة الواقعة ما بين سنة ألف وسنة ألف ومائة امتد سلطان الإسلام في ميادين أربعة : في غرب أفريقيا ، وفي آسيا الصغرى ، وفي آسيا الوسطى ، وفي شمال الهند . وبعد قرنين آخرين - بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٤٠٠ نفذ سلطانه إلى البلقان وإلى روسيا وسيبيريا وإلى بقية الهند وإلى إندونيسيا . ومن يومئذ وقف سلطان الإسلام عن الامتداد إلا في حدود ضيقة أكثرها في أفريقيا . وفي كل واحدة من هذه القفزات التي قفزها نفوذ الإسلام وسلطانه كانت الحضارة الإسلامية التي نمت وترعرعت منذ القرنين الأولين من عصوره الزاهية تزداد نماء وقوة بما تتصل به من حضارات جديدة تؤثر الحضارة الإسلامية فيها وتخضعها لسلطانها وتتأثر في نفس الوقت وتتغذى بما قد يكون من صالح فيها . وذلك بأن الإسلام لم يكن منذ اللحظة الأولى ديناً وعبادة وكفى ، ولكنه سرعان ما كان ثقافة وحضارة تكونت على أسسه وأصوله التي توطدت في حياة « محمد » بخير ما توطدت لحضارة وثقافة أسسها وأصولها الأولى . لذلك كان طبيعياً أن تغذى الحضارة الإسلامية وأن تغذى الثقافة الإسلامية من كل ما غزوا من ميادين العلم والبحث ، على أنه كان ككل قوى الحياة السليمة دائم النمو دائم النشاط لا يستقر ولا يهدأ بل يريد دائماً جديداً يهضمه ويتمثله ليلفظ قديماً لم يبق صالحاً لدرك الغاية التي ترمى الأصول والأسس الأولى لإدراكها ، وفي مقدمة ما ترمى هذه الأصول والأسس له تحرير الفكر من قيود المادة وتصوير العالم فكرة لا آلة والعمل للاستزادة من معرفة العالم لزيادة الاتصال به وحسن تمثيل فكرته . والغاية التي يرمى الإسلام لها درك كمال النفس في حسن اتصالها بالله ، وإسلامها له إسلاماً صحيحاً . وهذا وذاك لا يتحققان إلا بتحقيق المعرفة في أسنى ما تستطيع

عقولنا وعواطفنا وأفئدتنا وقلوبنا أن تصل إليه . في هذه الحدود المترامية الأطراف كانت الحضارة وكانت الثقافة الإسلامية تعملان . وبروح من الإخاء الصحيح الذي يقرر أن إيمان المرء لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه كانت الجهود تتضافر لإقامة الحضارة والثقافة . وبحكم اجتماع المسلمين في مكة أيام الحج كانت نتائج هذه الجهود تنتشر وتقوى وتنقل إلى المسلمين جميعاً في مختلف أقطار الأرض . أضف إلى هذا أن الإسلام سكّن حدة الفوارق الجنسية حتى لقد كاد يهدم الحدود فيما بين الدول المنتسبة له ، كما أن أخوة المسلمين يسرت الهجرة لهم جميعاً . فلم يكن عجباً أن نرى المعرى ينتقل من الشام إلى بغداد ويتخذها زمناً ماسكناً ، ولا كان عجباً أن يقيم من أهل الحجاز بمصر ومن أهل اليمن بالشام ومن أهل مصر بالمغرب ، وأن تنتقل ثمرات الفكر والبحث العلمي في أنحاء العالم الإسلامي على أيدي هؤلاء المهاجرين .

ولهذه الظروف ازدهرت الحضارة وتأصلت جذور الثقافة من عصور الإسلام الأولى . على أن نظام الحكم والأصل الذي يقوم في الإسلام عليه مالم يث أن تغير وإن اندست إليه فكرة تخالف الفكرة التي عرفت منذ صدر الإسلام ، فكرة كانت شائعة إلى يومئذ في فارس وفي بيزنطة وفي البلاد التي تغلب المسلمون عليها ، فكرة سرعان ما طورت كيان النظام الاجتماعي من الحياة الحرة إلى حياة مقيدة وما مهدت لدخول دول الإسلام في تيار تفكير العصور الوسطى وما يسرت للحاكم أن يزعج في نطاق الدين بكل شيء ، وبكل ما ليس من الدين في شيء ، وأن يقيد بقيود الدين حركات الناس وسكناتهم ومأكلاتهم ومشربهم وطريقة مشيتهم وسلامتهم وصور حديثهم وسكونهم . يقول «جب» : « وبالرغم من أن الدعوة

الإسلامية نفسها لم تنتشر بالسيف فقد كان تحت جناح الحكم الإسلامي أن وجد المبشرون بها خير الظروف في نشاطهم للدعوة ، ولئن كان هذا النشاط قد وجد في أوروبا المسيحية خصومة ولدداً منذ الساعة الأولى ومنذ أيام النبي عليه السلام فإن تسلط المسلمين وسرعة انتشارهم في أقطار الأرض حكماً قد استهوى النفوس إلى دعوة الحق التي بعثت إلى أرواحهم بكل هذه القوة . لكن هذا التطور الذي أشرنا إليه كان مقدمة الضعف والركود الذي استولى على الإسلام زمناً . والذي أمتد إلى زمننا هذا فبإسحلا فترات يقظة كانت تعود بالإسلام إلى كل مجده ثم ما تلبث أن تغلق تحت عبء هذا التطور والفكرة التي أدت إليه . ولست أجد خيراً في تصوير هذا التطور والفكرة التي قام على أساسها من أن أنقل عبارة الأستاذ « عبد الحميد العبادي » حين أروخ « لهارون الرشيد » في أحد ملاحق « السياسة » إذ قال : (ما النظام الذي كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . فخلافة العباسيين مختلفة عن خلافة أبي بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادي عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهي في الحكم . ولكي يعطوا هذه النظرية الصبغة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها ، وفي هذا المعنى يقول شاعرهم :

أني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثته الأعمام
ويقول « السفاح » في خطبته التي خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة : « واعلموا أن هذا الأمر فينا ، ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى

عيسى بن مريم عليه السلام . ويقول « المنصور » من خطبة له : « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوقيفه وتأيدته ، وحارمه على ماله ؛ أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه . فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يبقلني عنها أقفلني . . . » ولكي ندرك مدى التغيير الذي أصاب الخلافة في عهد العباسيين نكتفي بأن نورد بعض خطبة « أبي بكر » التي خطبها على أثر بيعته فقد قال : أيها الناس ، قد وليت أمركم . ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . . . » كما نورد الشعر الذي خاطب به « الحطيئة » « عمر بن الخطاب » بعد أن بويع قال :

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النبی البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

وكما ورث « الرشيد » الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسي للدولة ؛ ذلك نظام البلاط ، وهو شيء أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجين عن الرعية في بلاطهم ، تحف بهم حاشيتهم وحجابهم وحراسهم وغلمانهم ، ونفوذ نسايتهم وجواريتهم - إن صح هذا التعبير . وكثيراً ما كان بلاط فارس بهذا الخليط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ متأخرى الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السيئ في الشؤون العامة لأول ظهوره ؛ فقد ذهب « المهدي » و « الهادي » ضحية مكاييد دبرت خيم في نفس بلاطهم .

« حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط هو بحكم تكوينه ذوجو صالح للدس والمكايدة ، ذلك هو النظام السياسى الذى أصبح الرشيد يحكم بمقتضاه وفى حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذى يحكم فى ظله قوياً كان من أقوى أسباب الاستبداد والطغيان . وإذا كان ضعيفاً كان من أقوى بواعث الفتنة والاضطراب . » وهذا بالدقة ما يشته تاريخ الدولة العباسية . فالمتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمصور والمهدى والرشيد والمتوكل كانوا جبابرة طغاة ، وأما المتأخرون الذين يوصفون بالضعف فقد كانوا الأعياب فى أبهى أهل البلاط ونساء القصر ؛ يصرفونهم كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم . »

لكن هذا الذى حدث منذ العباسيين مما صور الأستاذ العبادى لم يكن جديراً أن يظهر أثره فى سنين قليلة ، ولم يكن من شأنه بطبيعة ظروف العالم العامة يومئذ أن تضعف الدول الإسلامية إزاء الدول غير الإسلامية . صحيح أن الإسلام وقف فى مركز جغرافى وسط بين أوروبا المسيحية إلى غربه وبين الأديان الهندية والصينية إلى شرقه . لكن نظريات الحكم ونظامه لم تكن فى أوروبا خيراً مما كانت فى الدول الإسلامية ، ولم تكن كذلك فى دول الشرق الأقصى . على أن ظروف هذا الانحلال الفكرى فى الدول الإسلامية مهدت للغزو المغول والتترى . ولما كان هؤلاء وأولئك قد أسلموا كان قيامهم وغزوهم الدول الإسلامية الأخرى من عوامل يقظة الإسلام وانكماش دول أوروبا الغربية ودول الهند والصين أمامه . ثم إن هذا التطور الذى أشرنا إليه والذى نقلنا وصفه عن الأستاذ العبادى كان لا بد أن يؤتى من الثمرات ما آتى وأن يمهد للعصر الذى مهد له بعد يقظة أوروبا

وتسلم حضارة الصناعة زمام القيادة العالمية لترج بالعالم كله فيما زجت به فيه من مادية توشك اليوم أن تنهار وتتداعى .

ظلت الدول الإسلامية محتفظة بمركز القيادة برغم هذا التطور السيئ لأن أوروبا كانت خاضعة للتفكير مثله أو شرمنه ، ولأن مركز التجارة والرخاء الاقتصادى كان بين المسلمين . على أن نهضة أوروبا فى القرن التاسع الهجرى وما وجه إليه تحرير الفكر أنظار هؤلاء الغربيين إلى الناحية العملية كان جديراً أن يقيم حضارة الصناعة وأن يزعم هذا المركز الممتاز الذى كان للمسلمين . صحيح أن أوروبا لم تجرؤ على التفكير فى غزو الإسلام قبل القرن الثامن عشر المسيحى ، وصحيح أن المسلمين ظلوا محتفظين بذاتيهم وباستقلالهم وظلت الخلافة الإسلامية التى رفع بنو عثمان علمها شبحاً أمام التقدم الاستعمارى الأوروبى ، إلا أن المسلمين شعروا بأنهم وقد كانوا إلى عصر قريب غزاة العالم تغزوهم صناعات وأفكار جديدة ويغزوهم من نواحي الغرب رجال يجيئون أول أمرهم أفاقين ثم ما يلبثون أن يصبحوا أصحاب الحول والطول وأصحاب النفوذ والمال . وماذا عسى المسلمين أن يصنعوا ؟ بدءوا أول أمرهم يحدقون ذاهلين بهذا الذى وقع ويسائلون أنفسهم عن سببه فلا يحيرون جواباً . وأدى ذلك بهم إلى الانكماش وإلى التوجه بقلوبهم إلى ناحية دولة الخلافة يأملون فى قوتها الروحية والزمنية من هذه الكارثة مخرجاً ، ولم يتقدم من بين صفوفهم أولئك الأفاضل الأقياء الذين يهزون العالم ويعثون إلى النفوس روح الإقدام وروح الاستخفاف بالحياة والذين يصيحون بأهلهم قائلين : « قَتَمُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » بل استكان الكل وظل الأمر بيد الخليفة وبلاطه وبين حكم الخلافة لهيباً وشبهات أهل البلاط المادية الوضبعة وفسائسهم المنحطة القذرة لئلا

ذلك بأن الفكرة التي أدت إلى التطور الذي قدمنا كانت قد آتت في هذا
الطرف كل ثمراتها . يقول « جب » : « ظل علماء الإسلام يعلمون الناس
مدى عشرة قرون تباعاً - لمناسبة ولغير مناسبة - وجوب الإذعان للسلطة
سواء أكانت هذه السلطة شرعية أم معتصة ؛ وقوى المتمسكون هذا الدرس
في النفوس بصورة لا تحتمل الريب . وتبدى الهمود السياسي وكأنه متأصل
في الشعوب الإسلامية حتى عزاه الغربيون الذين لاحظوا تحمل المسلمين
للضغط وسوء الحكم إلى العقيدة القدرية في الإسلام ، لكن هذه لم تكن قط
أكثر من نصف حقيقة . فالقدرية بهذا المعنى المطلق لم تكن سبباً بمقدار
ما كانت نتيجة . والاستكانة السياسية التي بدا بها الشعب الإسلامي إزاء
الغير ترجع في معظمها إلى أسباب مادية ؛ اليأس الاقتصادي من أكثرها
ظهوراً » . ولسنا بحاجة إلى القول بأن الأستاذ « جب » لا ينصف الإسلام
حين يعزو إليه أي حظ من هذه القدرية التي أدت بشعبه إلى الاستكانة .
فالإسلام لا يدعو للإذعان إلى أحد إلا الله . والقرآن الكريم أعظم الكتب
السموية دعوة لطاعة الوالدين ورضاهما ، يقول في صدر الكلام عنهما :
« وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا
فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » . فإذا كان ذلك شأن الوالدين فما بالث بمن يجاهدك
على أن تخضع لما ليس لك به علم ، وأن تصل من الخضوع له حتى تجعله
في السلطان لله شريكاً . إن أقل ما يأمر به الإسلام في هذا الطرف الثورة
عليه وتحطيمه وتحطيم تعاليمه . فأما ما جاء بعد ذلك من خضوع واستسلام
فإنما كان أثراً لهذا الانقلاب النفسي في تصوير أساس الحكم في الإسلام .
لم يجرؤ أحد على أن يجهر بهذه الحقيقة خلال القرنين السابع عشر
والثامن عشر ومن جهر بها كان معناه التعرض للتشريد والنفي والإلقاء

في أعماق الدردنيل جزاؤه . لكن المدينة الأوربية كانت دابة لغزو الشرق ولغزو الأمم الإسلامية بتجارها وصناعتها وثقافتها كذلك . وإذا استمر الأمر على هذا فقل على الخلافة الإسلامية وعلى العالم الإسلامي السلام .

ورفع كتاب العرب وساسته عقائدهم يصيحوون أن الإسلام كدين هو سبب انحطاط الشعوب الإسلامية . وأن هذه الشعوب لا مفر منقرضة ، وأن دولة الخلافة قد صار أمرها إلى أن أصبحت الرجل المريض لا مفر له من الموت الذي هو آتية لا محالة . وقوى نشاط المبشرين للمسيحية في العالم الإسلامي وقوى إلى جانبه نشاط الدعاة إلى الحضارة الغربية . فماذا عسى يصنع ساسة دولة الخلافة . لا شيء في الواقع . لكن المفكرين والكتاب من المسلمين بدعوا ونشاطهم في ناحيتين : أولاها سياسية هي الدعوة إلى الجامعة الإسلامية . والثانية دينية تجديدية هي الدعوة التي قام بها الأستاذ الشيخ محمد عبده والذين قاموا في أثره . وكان غرض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تجسيد الرأي الإسلامي ضد غزوة أوروبا المسيحية وقد أيد الباب العالي وأيد الخليفة هذه الدعوة بكل ما لديه من قوة . على أن هذه الدعوة وجدت في غزو الحضارة الأوربية من قوة المقاومة ما وضعفها ، ذلك بأن الشعوب الإسلامية شعرت شعوراً عميقاً بضرورة الاستفادة مما كشفت عنه حضارة الصناعة وما روجت له هذه الحضارة من تنظيم أسباب الحياة في المسكن والملبس ووسائل العيش . أما التجديد الديني فقد قام على أساس شعور عميق عند الشيخ محمد عبده وعند طائفة من أنصاره وأصحابه بأن الجمود الذي استولى على الإسلام والمسلمين إنما كان شبيه إقفال باب الاجتهاد وأخذ الناس بالتقليد الأعمى وترويج خرافات وأوهام باطلة ونسبتها إلى الدين واعتبار الخارج عليها وغير المؤمن بها ملحداً يرمى بالكفر . وقد نبى

الأستاذ الشيخ محمد عبده دعوته على الإسلام الصحيح الإسلام المستند إلى القرآن وإلى السنة ، الإسلام الذى أراد أن يحرر العقول والأفهام من كل معنى من معانى الوثنية ، هذا هو الإسلام الذى يتقذ المسلمين ويرد إليهم مجدهم . أما هذا الإسلام التقليدى الذى جاءنا بعد ثلاثة عشر قرناً تداولته فيها أعاصير السياسة ودست فيه الفكرة الاستبدادية من الأوهام ما يمكن للمستبدين ويجعل لهم السلطان المطلق فلا يمكن أن تقوم على بدعة وأوهام أمة من الأمم ترجو فى الحياة سُودداً أو مجداً . ومع أن الميدان الذى عمل فيه الأستاذ الشيخ محمد عبده لم يتناول إلا الشؤون الدينية البحتة فى حدود ما يطلق عليه الإفرنج التيلوجيا . وبالرغم من أن الشيخ كان يعمل لإصلاح الأزهر وصلاح حال رجاله ، فقد قام هؤلاء الرجال فى وجهه أشد قومة وحاربه أشنع الحرب ورموه بالإلحاد والكفر واعتبروا الدعوة التى كان يدعوا إليها - والتى تعتبر فى نظرنا متواضعة غاية التواضع إلى جانب ما دعا النبي عليه السلام إليه من حرية الفكر والفؤاد والقلب - دعوة إلحادية جدير بصاحبها أن يبوء بغضب صاحب العرش وأن يبوء بغضب الجمهور . على أن شخصية الشيخ محمد عبده الممتازة تركت فى العالم الإسلامى أثرها وأتاحت للمسلمين أن يتخلصوا ولو تخلصاً ضعيفاً من سلطان التقليد الأعمى ومن سلطة الدجاجة الذين يتقدمون إليهم باسم الدين يسمرون عقولهم وأفكارهم بالخرافات والترهات .

لم تصادف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية من النجاح إلا حظاً نظرياً صرفاً . وظلت دعوة الأستاذ الشيخ محمد عبده محصورة فى حدود ضيقة لأن برنامجاً إنشائياً لم يوضع لها ولأنها لم تبلغ من الجرأة فى هدم الأوهام المبلغ

الذى يطوع لها حقها الكامل من النجاح . وفي هذه الأثناء كان غزو أوروبا مطرد التقدم . وفي هذه الأثناء كانت العناصر غير الإسلامية في العالم الإسلامى تتعلم وتتقدم وتنال الحظوة والثروة . وفي هذه الأثناء كان رجال الدين في شغل بالمتناقشات البيزنطية العقيمة ويرمى الشيخ عبده وأصحابه بالإلحاد والمروق ويمثل هذه التهم التافهة التى لا تروج إلا في عصر الانحلال والتدهور وتحت سلطان الاستبداد والطغيان . وكانت مصر قد امتد إليها النفوذ الأوربى بأكثر مما امتد إلى الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف فجعل هذه المدينة العربية ومبادئها وما تدعو إليه محسوساً فيها مقدراً من أهلها . والمدينة الغربية كانت دعائمها العقلية حرية الرأى والفكر وتحطيم أغلالها أباً كان نوع هذه الأغلال . إذن فلا بد أن كانت هذه الحرية مصدر هذه القبة العجيبة التى طوعت لأوروبا أن تغزو الشرق وأن تغزو العالم الإسلامى هذا الغزو المربع . فلنأخذ بالحضارة الغربية ولنسج على منوال الغرب . وكذلك قامت الدعة إلى نظام في الحكم كالنظام القائم في الأمم الأوربية وإلى تعلم كالتعلم الموجود في أوروبا وإلى ثقافة غربية بحتة ، وحسب بعضهم أن لا مفر من هذا أو يقضى على الشرق القضاء الأخير . وغلا بعضهم في ذلك حتى رأى واجباً أن يقطع العالم الإسلامى صلته بالماضى كله وأن يستل عن المدينة الغربية بحذافيرها . وهذه الدعوة هي ما يسميه مؤلفو الكتاب الذى أوحى إلينا بهذا الفصل بهذا الاسم العجيب : تعريب الشرق .

ويلاحظ الأستاذ « جب » وزملاؤه المؤلفون أن أصحاب هذه الدعوة نسا أن مظاهر حضارة الغرب تعتمد على أصول قديمة وإلى ثقافة عربية وأن نقل الظاهر وحده لا يكتفى لإقامة هذه الحضارة . وهذه ملاحظة أبدأها

منذ عشرات السنين اللورد « منتر » فى كتابه « إنجلترا فى مصر » عن سعى الخديو الأول « إسماعيل باشا » لنقل مظاهر الحضارة الغربية إلى مصر . لكننا لا نوافق الأستاذ « جب » على ملاحظته ونقف منها موقف الناقد للغرب فى حضارته القائمة على الأثرة والأنانية والمشبعة من المادة الاقتصادية بروح هى التى خلقت لأوروبا متاعها فى الحرب ومتاعها الحاضرة . فقد أدرك هؤلاء المصريون أن مظاهر الحضارة الغربية تتركز إلى أسس رآها بأعينهم من سافروا منهم إلى أوروبا وتغذى منها من درسوا فى الجامعات الأوروبية ومن اطلعوا على أدب الغرب . ولذلك قاموا فى مستهل هذا القرن العشرين يدعون إلى إنشاء جامعة على نظام جامعات أوروبا يكون لها استقلالها ويكون للعلم فيها أساسه الصحيح من حرية البحث والتفكير . لكنهم ما كادوا يفعلون حتى وقفت السلطات الرسمية الخاضعة لتنفذ إنجلترا فى مصر منهم موقف الخصومة وحتى دعا لورد « كرومر » الأهالى والأعيان المصريين الذين طلب إليهم أن يكتبوا لإنشاء هذه الجامعة كى يكتبوا لإنشاء الكليات ، وظلت الجامعة بعد ذلك تحارب فى السروق العلن ولا يزال ذلك شأنها إلى وقتنا الحاضر . وهذا عجيب ، فقد كان المسلمون لا يكادون ينزلون بلادا يفتحونها حتى يمهّدوا منذ أول نزولهم فيها لتشييد بناء حضارتهم بها . ولم يكن بدور بخاطرهم أن يحرموا أهل هذه البلاد من النهل من أصول هذه الحضارة ومصادرها . فوقوف ممثلى الحضارة الغربية فى وجه انتشارها بصورتها الصحيحة واكتفاؤهم بتناول الشعوب الأخرى مظاهرها وآثارها غير متمثلة ، أنانية غير جديرة بالدعوة إلى الحضارة وإلى التقدم . على أن ما حدث من هذا كان له أثره الحسن . فقد شجع القادرين على أن يرسلوا بأنسابهم إلى أوروبا ليدرسوا فى جامعاتها على ما فى ذلك من كلفة

ومشقة . وازداد عدد هؤلاء وكثروا في مصر . كما حذت الأمم الإسلامية الأخرى حذو مصر وعاد هؤلاء وأولئك إلى بلادهم يثبون الحضارة الغربية . لكنهم ما لبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضاً بيناً : الأولى هذه الحرب المنظمة التي يقوم بها الاستعمار الأوربي لحرية العقل حرية مستندة إلى النظام الجامعي الذي يقرر البحث الحر الطليق من كل القيود ، سواء أكانت دينية أم غير دينية والمستند إلى القواعد العلمية الصحيحة ، قد راعهم من هذه الحرب أنها لم تكن تقبل هواده قط ، وأن مثل إنجلترا في مصر لم يكن يأبى أن يكتب في تقاريره أن مصر بغير حاجة إلى علماء بالمعنى الغربي وإنما هي بحاجة إلى موظفين مطواعين . والظاهرة الثانية انتشار المشرين الغربيين في كل مكان في المدن الكبيرة والصغيرة بل في القرى ، يدعون إلى المسيحية ولا يأبون التعريض بالإسلام . وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشبان يدعون إلى الحضارة الغربية مستندة إلى أصلها الصحيح ، أى إلى حرية البحث ونزاهة العلم ، ويدعون إلى ذلك في حرارة لم يكن من شأن الجامدين على التقليد الديني الذين رموهم بالإلحاد إلا أن زادوها قوة واستعاراً . لكن مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تكن أقل إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدما . فما يصدر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات الغرب من الريح المادى بما يمدد بأسباب الرخاء والترف . فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحى كانت هى أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب في الشرق . ولم يقدم الغرب إلى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوائها هذه . بل هو كما قدما وقف حائلاً دون سرعة

انتشار العلم الصحيح مما كان هؤلاء الشبان يجاهدون بكل ما يدخل في حدود طاقتهم لنشره والتمكين له .

* * *

ظلت الحال كذلك إلى أن أعلنت الحرب الكبرى ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا . وكان من أثر انتصار الحلفاء أن قضى على الرجل المريض - الإمبراطورية العثمانية - وأن وضع الحلفاء أيديهم على بلادها المختلفة ؛ وخضوع العالم الإسلامي كله فيما خلا تركيا وفارس وأفغانستان وشبه جزيرة العرب إلى النفوذ الأوربي مصوراً في صورة الانتداب أو الاستعمار أو الاحتلال العسكري أو ما شئت من هذه الأسماء المختلفة للفظ المخففة المدلول . وجاء في أثر ذلك أن خلعت تركيا الخليفة السلطان « عبد المجيد » ، وأن نفته وأهله ، وأن أعلنت رغبتها عن الخلافة . وربما شعرت الأمم الإسلامية التي تحررت من النير التركي بشيء من التخفيف عنها أول الأمر . فقد كانت هذه الأمم متعطشة من زمن بعيد إلى نهضة تنهضها وينهضها الإسلام وكانت ترى في تركيا وفي الاستبداد التركي وفيما كان الرأي عند ساسة الترك قبيل الحرب من ترليك العرب حائلا دون هذه النهضة . وقد بذلت دول الغرب أثناء الحرب وفي أعقابها من الوعود وتغنت من أغنيات السلام والعدل المجرد من الهوى والحرية التامة الشاملة وحتى الشعوب في تقرير مصيرها بما جعل هذه الشعوب الإسلامية تطمع في بعث جديد تناله في ظل هذه المعاني . لكن تعاقب السنين من بعد الحرب كشف عن الحقيقة المضنية المؤلمة ، فهذه الأغنيات كلها لم تكن إلا وهماً وتخداً . وقضية أوروبا التي حاربت في سبيلها أربع سنوات تباعاً والتي بذلت فيها

مهج أبنائها وملايين ما كدست من الثروة على مر السنين لم تكن إلا قضية الاستعمار ومن يكون له حق التوسع فيه : دول الوسط أم الحلفاء . ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وإيلاماً . تلك أن الغرب الذي تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الديني ما زال يذكر الحروب الصليبية التي نشبت خلال القرون بين المسيحية والإسلام ؛ وأن كلمة لورد « اللتي » يوم استولى على القدس وقوله إن الحروب الصليبية قد انتهت كانت تعبر عن معنى يحول بخاطر الدول الأوروبية جميعاً وإن كان هذا الجندى المقدام هو الذي صرح بها وكشف عنها . في ظل هاتين الحقيقتين الأليمتين جعلت دول الغرب التي وضعت يدها على العالم الإسلامي تمد في أسباب الجمود الديني عن طريق الجامدين المتعصبين لتزيد الشعوب الإسلامية جموداً وليزيدها الجمود ضعفاً ؛ وجعلت تحمي الجماعات التبشيرية الدينية وتمدها بكل ما تستطيع من قوة وتحاول أن تحطم كل قلم وكل رأس يقف في وجه هؤلاء وأولئك .

هنا كانت اليقظة المرعبة ، يقظة هؤلاء الشبان الذين درسوا في أوروبا وجاءوا ينشرون في البلاد الإسلامية لواء حضارة الغرب . ما هذا ؟ إلى أي حضيض يهوى أهل هذه الحضارة ؟ وكيف تطوع لهم ضمايرهم أن يستخدموا العلم الإنساني لإذلال الإنسانية وإلهدار كرامتها ؟ وكيف تظل أوروبا على تعصبها الديني المفقوت الذي انبعث جنودها في القرون الوسطى باسمه لمحاربة المسلمين ؟ ! وكيف تسبغ أوروبا في سبيل الحياة المادية وترفها وأن تحول بين شعوب كاملة ، بل بين عالم بأسره ، وبين النور المقدس الذي يضئ به الله الأرواح والقلوب من طريق العلم والمعرفة ! ! وكيف تطمع المسيحية في أن تكتسح الإسلام وهو أسمى الأديان التي دعت

إلى الحرية الحقة ما أخذ في صفاء جوهره وما نُفِيت عنه هذه الترهات التي أُضيفت إليه على أنها منه وهي ليست منه !!! وقامت لذلك في نفوس هؤلاء الذين ألقى إليهم النهوض بأعباء الحركات القومية التي اهتزت بها أُمم الشرق في أعقاب الحرب ثورة على هذه الأساليب التي لجأ الغرب إليها - وجعل كل يفكر . وكانت ثمرات هذا التفكير هي ما ذكر الأستاذة « ماسينيون » و « كمبفماير » و « برج » والفتنات كولونل « فرار » في فصول كتاب « وجهة الإسلام » .

جعل الكل يفكر في سبيل الخلاص من استعمار الغرب وتبشيره فأخذ جماعة بمذهب الرابطة الشرقية تربط أُمم الشرق الخاضعة للنفوذ الغربي جميعاً ، وأخذ آخرون بمبدأ الجامعة العربية بظل لواؤها الذين يتكلمون العربية جميعاً . وفكر آخرون في إحياء الخلافة لتربط من جديد بين الأُمم الإسلامية ، ولكن على أن تكون خلافة روحية ليس لصاحبها سلطان زمني ، ورأى بعضهم التمسك بمبدأ القومية ومقاومة الاستعمار الغربي بأسلحة الحضارة الغربية ، وفكر جماعة في رفض ماضيهم الإسلامي والأخذ بماضيهم السابق على الإسلام كما فعل الأتراك وكما يجول بخاطر بعض أهل الغرب الأقصى من المراكشيين . وكانت لهذه الصور المختلفة من التفكير مظاهرها العملية . فقد تألفت جمعية الرابطة الشرقية في مصر كما تألفت فيها جمعية الشبان المسلمين وانهقد فيها في سنة ١٩٢٥ م مؤتمر الخلافة . وتألفت في الهند جمعية الخلافة وكان مولاي « محمد علي » على رأسها إلى حين وفاته ، كما أن الدكتور « إقبال » من أكبر دعاة القومية وإن ظل الدكتور « أنصاري » إلى جانب « غاندي » من دعاة القومية الهندية . وانهقد مؤتمر إسلامي بمكة في سنة ١٩٢٧ م كما انهقد في القدس

سنة ١٩٣١ م : وبدأت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي كله ثورة نشاط قوى دلت على أن التبشير لن ينال أى نجاح أكثر من إثارة الشعوب الإسلامية عليه وعلى أن الاستعمار لن يكون من أثره إلا إثارة الكراهية والمقت في قلب الشرق وفي قلب العالم الإسلامي للغرب وحضارته المادية التي هوت بأسسها . حرية العقل ، إلى صور من الأدب ومن الموسيقى ومن الرقص ومن ألوان الحياة والترف تدل على أن هذه الحضارة قد آذنت بالآفول . وأنها تخطت جانب الصعود إلى جانب الانحدار والتدهور .

وكان تهدم الحضارة في الشرق من أقوى العوامل لبث هذه الآراء ولتدعيم كل مظاهر نشاطها . والذين يقومون بأمر الصحف في الشرق ويؤيدون هذه الأفكار الثائرة على الغرب وعلى استعمارهم وتبشيرهم الساحقة إن لم نقل كلهم من الذين تعلموا علوم الغرب وكانوا يبشرون بحضارته ومن الذين يؤمنون ما يزالون بأن الأساس الذي قامت عليه ، حرية العقل والتفكير وحرية البحث العلمي بحثاً جامعياً منظماً ، هو خير أساس تقوم عليه حضارة ، على أن لا ينكر هذا الأساس حاجات الروح للاتصال بالعالم على أنه فكرة لا على أنه آلة ، وعلى أن لا ينكر كذلك على العاطفة وعلى وحي النفس وإلهام الفؤاد سلطانهما في الحياة ، وعلى أن ينظر إلى العالم على أنه كل له وحدته العليا ، لا على أنه كم مادي يستطيع العقل أن يصل إلى كنهه كل ما فيه بالتحليل والتشريح وبأدوات البحث العلمي الناقصة غاية النقص ما تزال .

ليس يكفي إذن لإقناع الغرب بأنه غزا الشرق في كل ميادينه أن تكون أساليب الغرب في الحياة وكسب العيش قد انتقلت إلى الشرق فأصبح يستعمل الآلات الزراعية الغربية في زراعته والصناعية في صناعته

وأنه أصبح يلبس لباس أهل الغرب ويأكل على طريقتهم ويتنقل بوسائل
انتقالهم . بل ليس يكفي لهذا الاقتناع أن ينقل الشرق أساليب حكم الغرب .
فهذه كلها مظاهر خارجية إن بهرت النظر فقد لا يكون لها في دخيلة النفس
أثر . وهذا ما يلاحظه الأستاذ « جب » بمنتهى الدقة : حيث يقول :
« إن مستقبل - التغريب - وما سيكون له من أثر في العالم الإسلامي
لا يتعلق بأى من هذه الاستعارات الخارجية . فالأشكال الظاهرة في المحل
الثاني . والأمر كذلك في هذه الشؤون - الاجتماعية - أكثر منه في
الشؤون المادية . فكلما كان التقليد الظاهر أكثر دقة كان التمثيل الداخلي
أقل قياماً . ذلك بأنه كلما ازدادت الإحاطة بالروح والمبادئ التي تقوم
عليها الأشكال الظاهرية دقة ارتبط بها عادة قصور ما تقتضيه الظروف
المحلية لاقتباسها . وقد يتهدم كثير من النظم الغربية ومع ذلك لا يكون
العالم الإسلامي أقل - تغريباً - مما كان ، بل لقد يكون أكثر تغريباً .
ولو أننا أردنا أن نعرف القدر الصحيح الذي أثرت به الثقافة الغربية في
الإسلام فإننا يجب أن ننظر تحت السطح وأن نوجه نظرنا في المحل الأول
للأفكار والحركات القائمة على أساس من التمثيل الخالق للفكر الغربي
بعد تحضير داخلي في النفس عميق . أما ما سوى ذلك فسطحي كله .
ومهما يكن العمل دقيقاً وشاقاً فإننا يجب أن نبذل جهدنا لتمييز من بين
ما استورد من موارد الغرب . الفاسد أكثرها ، والتي تزحم الآن أسواق
الإسلام وميادينه ، تلك التي تقيم الأسس الأولى لبناء ثقافة جديدة » .

وهنا يمس الأستاذ « جب » جوهر المسألة ويتحدث عن التربية والتعليم
وعن إقامة نظمها في العالم الإسلامي على أسس غربية . وهو في الوقت
نفسه يتحدث عن الصحافة وعملها وسلطانها في إقامة أساس الثقافة الجديدة .

وهو يقول إن التربية والصحافة ومقومات الحياة كانت أكثرها ترمى إلى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية ؛ فليس شيء من شئون هذه الحياة يصح أن تسبغ عليه الطابع الديني إلا ما كان دينياً بطبعه . وقد استطاعت الثقافة في نظر الأستاذ « جب » أن تحقق هذه الغاية . يقول الأستاذ : « إذا كان الإسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته فهو كنظام للحياة الاجتماعية ؛ قد نزل عن عرشه وقامت إلى جانبه أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الأحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية وهي مع ذلك تقوم في موقف الاحترام منه . ولنصف الواقع في أبسط صوره فالذي حدث هو ما يأتي : إلى عهد قريب كان المسلم المزارع أو ساكن المدينة وليست له مهام ولا واجبات سياسية ، وليس له أدب سهل التناول غير الأدب الديني ؛ وليس له أعباء ولا حياة عامة إلا ما اتصل بالدين ، ولم يكن يرى من الحياة الخارجية إلا قليلاً أو لا شيء إلا من خلال المنظار الديني . فالدين كان إذن كل شيء عنده . أما اليوم فقد انفسحت مهامه في الأمم التي أصابت خطأ من التقدم ولم يبق نشاطه محدوداً بالدين . فهو يقرأ أو تقرأ له فصول شتى في شئون من كل نوع لا علاقة له بالدين ولا تناقش فيها وجهة النظر الدينية على الإطلاق ويكون الحكم فيها لنظريات ومبادئ لا شأن للدين بها . وهو يجد في كثير من متاعبه ومنازعاته أن لا فائدة له من التقدم إلى المحاكم الشرعية وأنه إنما يقيده قانون مدني قد لا يعلم من أين يستمد سلطان نفاذه ولكنه يعلم أنه لا يستمد هذا السلطان من القرآن ولا من السنة . ولم تبق الشؤون الدينية شاغله الوحيد في صلاته بغيره من مواطنيه بل أخذت المشاغل والمهام الزمنية بنظره وتقديره وبذلك خفت سلطة الإسلام في الحياة الاجتماعية

وتراجعت شيئاً فشيئاً إلى ميدان من النشاط أشد ضيقاً ، وقد تم كثير من ذلك عن غير وعي وحس ، وبين نسبة قليلة من المتعلمين كان الشعور بهذا الذى تم . والذين حاولوا إتمامه عن إدراك وشعور كانوا أقل من أولئك نسبة . وهنا يجب أن نعترف بأن الأستاذ « جب » قد لمس الحقيقة كما لمسها من قبل . لكننا نعتقد من ناحيتنا ، مع الاعتراف بما كان لدوافع الحضارة الغربية من أثر في التطور الذى أشار الأستاذ إليه ، أن هذا الاتجاه الحديث الذى تأصل في نواح كثيرة من نواحي الحياة الإسلامية إنما دفع إليه الثورة على الجمود وعلى التقليد الأعمى وعلى الخرافات والأوهام القديمة وعلى هذا الازدراء بالعقل الإنسانى وبحريته مما امتازت به المدرسة العتيقة التى كانت سبباً في تدهور الإنسان وانهباء الشعوب الإسلامية . وليس أدل على ذلك مما لاحظته الأستاذ « جب » وزملاؤه مؤلفو « وجهة الإسلام » من أن كثيرين من الشبان الذين حملوا ألوان الحضارة الغربية وصاروا يبشرون بها قد عاد الكثيرون منهم يشعرون شعوراً قوياً صادقاً بأنهم في حاجة إلى أكثر مما تمدهم الحضارة الغربية به ، وأنهم لذلك يجب أن يلجأوا إلى تراث السلف من المسلمين لالتماس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة . وزادهم شعوراً بهذا النقص أن رأوا الفكرة القومية تقوم في الغرب على نضال اقتصادى عنيف لا يعرف هوادة ولا يقف في وجهه اعتبار من قواعد الخلق أو من الإخاء الإنسانى أو من المودة والرحمة . نضال في سبيل المادة بين أهل البلد الواحد وبين الدول المختلفة هو الذى كان مثار الحروب ومثار أسباب الشقاء والتعس في هذا العصر من عصور الإنسانية . وقد زادت الصناعة التى كانت وما تزال مظهر هذه الحضارة بآلات الحرب بشاعة وقسوة ، فهل ترى يجد العالم

الإسلامى فى تراث الماضى ما يشقى غلة روحه مما عجزت الحضارة الغربية عن أن تقوم به وما يقيم حياة جديدة وحضارة جديدة ليس فيها هذا الجشع المادى الفظيع الذى يهوى بالإنسان إلى مرتبة لا ترضاها النفس الفاضلة ؟ ! إن هذا التراث قد اختفى تحت طبقات وطبقات من أباطيل عصور الانحلال الذى أصاب العالم الإسلامى قرونًا متواصلة فليكن من عمل رجال العالم الإسلامى أن يزيحوا أكداس هذه الطبقات ، وأن يعيدوا إلى الوجود فى إحدى صور الوجود وعلى طريقة علمية صحيحة ما يشتمل عليه هذا التراث الذى غزا العالم وغذاه بأدوات الحضارة أجيالًا وقرونًا طويلة .

عند هذه النقطة يقف العالم الإسلامى اليوم . ومظهرها الصريح الواضح أن أولئك الذين كانوا دعاة الحضارة العربية وحملة أعلامها والذين بلغوا من إدراك حقيقتها أن وقفوا على هذا العجز والقصور فيها هم الذين يقومون اليوم بهذه الدعوة ، وكثيرون منهم هم الذين يقومون اليوم بهذا البحث . أولئك يشعرون شعور الواثق بأنهم سيجدون لا ريب فى هذا التراث ما يبعث إلى عالم اليوم الرازح تحت ظلمات المادة ضياءً روحياً هم وحدهم القديرون على بعثة من جديد لأن اتصاله بروحهم دون روح الغرب هو الذى يذكى ضيائه . ويوم يوفقون إلى هذا فسيحتاج للعالم الإسلامى بموقعه الجغرافى بين الغرب والشرق وبين المسيحية والديانات الآسيوية أن يمد يداً إلى ناحية ويبدأ إلى الأخرى ليرتفع بهؤلاء وأولئك إلى مبادئ الحضارة الصحيحة ، الحضارة التى تدرك وحدة الوجود على وجهها الصحيح . الحضارة التى تقوم على أساس الإخاء وتقول إن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، الحضارة التى تنبث فى أنحاء الحياة بسمات

السعادة الصحيحة وتضيئها بنور الحق الذى يقف محجوباً بحجب المكان والزمن . الحضارة التى لا تعرف إسلاماً لغير الله ولا تعرف للحق حدوداً ولا لحرية العقل قيوداً . والتى تنير ظلمات العيش بالشفقة والرحمة والإيثار وإطعام المسكين وابن السبيل والمؤاخاة بين الناس جميعاً أياً كانت أجناسهم وعقائدهم والمغفرة للمذنب والمحبة المنبثة فى أرجاء الكون كله والتى تندس اليوم إليها هموم المادة فتحيلها عداوة وحسداً وتقيمها كما تقيمها حضارة الغرب على أساس من حرب الطبقات . .

يوم ينهض الإسلام بهذا العبء العظيم يستمد من ماضيه بعد أن يكشف عن نوره ليضيء العالم كله ، يومئذ يبدأ العالم يشعر بنعمة السلام الحق المنبعث من أعماق قلوب ملئت رحمة وعظفاً ومحبة : أما إلى يومئذ فستظل المادة حاكمة متحكمة ، وسواء أكان النظام الذى يجعل الحكم للمادة بلشفيّاً أم كان نظام رأس المال فالشقاء حتم على الإنسانية لا محالة . ذلك بأن حكم المادة هو حكم الوحشية التى تستطيب الدم والدماء والموت ، أما حكم العقل والروح وما يستمدانه من كل ما فى الكون من مودة ورحمة فتحكم الإخاء الذى لا سبيل غيره إلى السعادة والسكينة والنعمة والسلام .

مصادر الكتاب

الفصل الأول : الشرق والغرب

- ١ - في العصور الوسطى :
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٣٢ في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٣٣
- ٢ - إبان البعث الأوربي
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٦٠ في ١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ١٢
- ٣ - الحضارة الاستعمارية :
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٨٥ في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٨ .

الفصل الثاني : الشرق في طور بعثه

- ١ - أثر الحركات الفكرية في بناء الأمم :
(أ) محاضرة أقيمت بحلب عام ١٩٥٣ بدعوة من دار الكتب الوطنية بها .
(ب) السياسة الأسبوعية في ٩ أبريل سنة ١٩٢٧ .
- ٢ - الحرب وحركة التجديد في الشرق :
السياسة الأسبوعية العدد ١٠٣ في ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٨ ص ١٠ .
- ٣ - حضارة الشرق متى تبعث من جديد :
السياسة الأسبوعية العدد ١٤٧ في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ص ١ .

الفصل الثالث : البوذية

- ١ - أصول البوذية :
السياسة اليومية العدد ٢٩٠ في ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .

٢ - مميزات البوذية :

السياسة اليومية العدد ٢٩٦ في ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .
٣ - النظر :

السياسة اليومية العدد ٣٠٨ في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .
٤ - العمل :

السياسة الأسبوعية العدد ٣١٥ في ٢ نوفمبر ١٩٢٣ صفحة ٣ .

الفصل الرابع : غاندى

١ - غاندى والسلام :

بحث كتب في يناير ١٩٥٣ في ندوة غاندى بالهند .

٢ - أساليب غاندى وكيف تخفف حدة التوتر داخلياً ودولياً :

بحث كتب في يناير ١٩٥٣ في ندوة غاندى بالهند .

٣ - حول الهند :

محاضرة بعنوان مشاهدات في الهند عقب ندوة غاندى سنة ١٩٥٣

الفصل الخامس : الإسلام والحضارة الجديدة

١ - القوة الروحية في الإسلام :

مجلة الشباب العدد الأول في ١٧ فبراير ١٩٣٦ ص ٧ .

٢ - أوروبا والإسلام ولم لا يضاهاها :

مجلة الشباب العدد ٤ و ٧ و ١٢ في ٩ و ٣٠ / ٣ و ٦ / ٥ / ١٩٣٦ .

٣ - وجهة الإسلام :

ملحق السياسة رقم ٢١٣١ في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ص ١٠